

تقنية الملاحظة

ملاحظة:

أن هذا الدرس المنهجي يلخص ما جاء في كتاب ستيفان بو وفلورنس فيبر "دليل التحقيق الميداني" ويقوم بالتعليق عليه. إن كل التعريفات والاستشهادات مأخوذة من نفس الكتاب.

مخطط درس الملاحظة

- ملاحظات عامة
- موضوع الملاحظة
- تعريف الملاحظة
- إشكال "المسافة"
- شبكة الملاحظة
- مراحل الملاحظة

1- موضوع الملاحظة

يقول كوفي وكوينهود عند حديثهما عن الملاحظة بأنها "تنظر إلى أفعال الفاعلين باعتبارها تجليات لأنساق علاقات اجتماعية وإلى الأسس الثقافية والادبولوجية التي تأسس لها"⁽¹⁾

الملاحظة تقارب مستوى الممارسات، مستوى الأشياء والعلاقة بينهما. مستوى الممارسات: أفعال الأفراد.

مستوى الأشياء: طريقة إعمار الفضاء والأشياء المختارة لذلك.

العلاقة بينهما: مقارنة الفعل في علاقته بالسياق الذي يرد فيه.

2- الظواهر الملاحظة

قد تكون الكثير من الظواهر الاجتماعية موضوعا للملاحظة ونذكر منها على سبيل المثال: حفل زفاف – ملعب – ساحة مدرسة – الحياة داخل حي – طريقة تأنيث مسكن – سوق – محطة قطار...

¹ Quivy et Copenhoud, Manuel de recherche en sciences humaines et sociales, P144.

3- تعريف الملاحظة

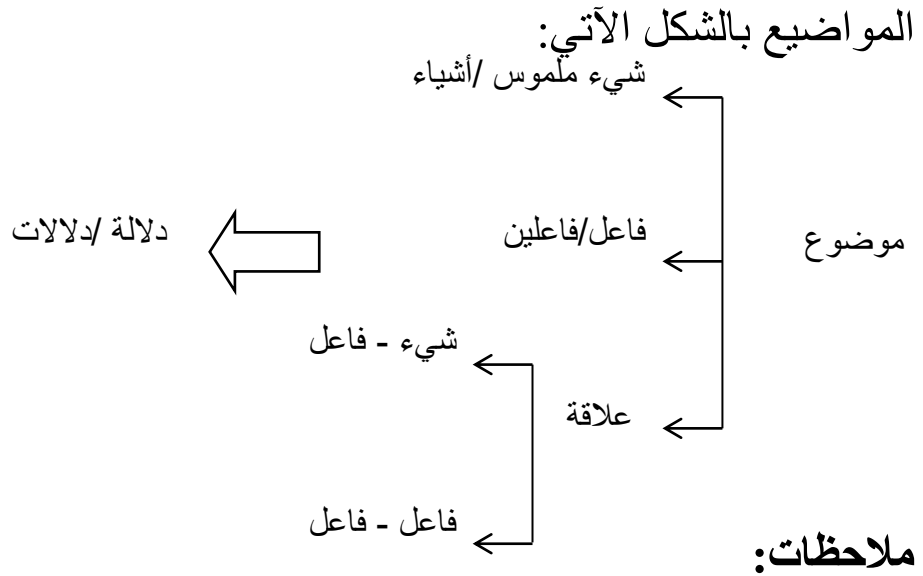
هي من منظورنا : "الرؤية بقصد الفهم"

تفرّق اللغة الفرنسية بين كلمتي Regarder و Observer حيث أن الأولى تعني المشاهدة العابرة وغير المركزة أما الثانية فتعني تتبّع الشيء ومحاولة تفهمه. أما مقابل ذلك في اللغة العربية فهو التفريق بين الرؤية والنظر، فهذه الأخيرة تستوعب الأولى وتضيف إليها مستوا من التأمل المقصود لما نكون بصدد رؤيته(*)

أما كلمة "قصد" فهي تعني فعلا فينومينولوجيا. إن هذا الفعل يقتضي التركيز على أمر محدد يقوم الباحث بملاحظته والبحث عن تفاصيله وكذا في تفاصيله، من خلال المتابعة المتأنية وتكرار ذلك مرّات عديدة.

أما ما نقصده من كلمة "فهم" هو الانتقال من الموضوع الملاحظ إلى دلالة معنية حوله. من وجهة نظر سيميائية.

تختلف دلالة "فهم" باختلاف الموضوع الذي تتوجه نحوه. ويمكن تصنيف



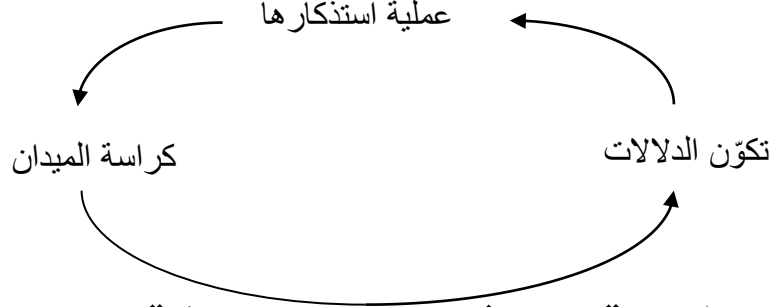
(*) إننا نرى أن كلمة "نظر" أقرب إلى ما تقصده الأنثروبولوجيا في عملها من كلمة "ملاحظة" وهذا أمر يحتاج إلى تفصيل ليس هنا مقامه وإنما عمدنا إلى استعمال كلمة "ملاحظة" "Observation" لشيوعها في ترجمات مختلف الباحثين ودروهم على ذلك.

غالبا ما يصعب الفهم عند تعاملنا مع الفاعلين، ذلك أن ثمة مستوا وسيط بين الفاعل والدلالة هو مستوى وعي الفاعل وقصده من فعله، مستوا قد يصعب عملية بناء الدلالة واستخراجها.

أما عن العمليات الفعلية المدرجة داخل تقنية الملاحظة فيقول ستيفان بو Florence weber و فلورونس فيير Stephane beau

"ترتكز الملاحظة الإثنوغرافية على تتابع مهارات ثلاث متصلة ببعضها البعض: النظر، الاستذكار والكتابة. إن الملاحظة تفترض حركة دائمة بين

تكوّن الدلالات، عملية استذكارها وكراسة الميدان"⁽¹⁾



4- الملاحظة وإشكال المسافة

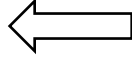
إن بدايات الأنثروبولوجيا كانت مع المجتمعات الغير أوروبية، أي بمعنى آخر مجتمعات مغايرة في ثقافتها وطرائق عيشها، وفي نهاية القرن الماضي وسّعت الأنثروبولوجيا مجال اهتماماتها إلى مجتمعاتها الغربية (المتحضرة). في كلتي الحالتين عندما تقارب الأنثروبولوجيا موضوعها فإن ثمة مشكلة إبيستمولوجية تتعلق بتقنية الملاحظة.

في الحالة الأولى: الباحث يقارب موضوعا مغايرا
المشكلة : عدم معرفته / أي

بعيد عن ثقافته وطريقة عيشه شيء عن هذا

الموضوع

في الحالة الثانية: الباحث يقارب موضوعا هو جزء من المشكلة
تعوده التام على



ثقافته وطريقة عيشه كل ما هو

موضوع للملاحظة

يسمي الباحثون هذا المشكل المنهجي والإبستمولوجي مجازا بإشكال "المسافة" الفارقة بين الباحث وموضوعه، والتعامل معها يكون من قبيل "جعل ما هو غريب (غير مألوف) معتادا وجعل ما هو معتاد غريبا غير مألوف"⁽¹⁾ أو بمعنى آخر يستوجب على الباحث اقترابه من الموضوع الغريب من خلال عملية تعرّف مستمرة على موضوعه والعكس يستوجب عليه، في حال اقتراب من موضوع مألوف، المسائلة الدائمة للتفاصيل المعروفة لديه والتخلص من سلطان العادة الحاجب للنظر.

5- مراحل الملاحظة

إن ثمة عند الحديث عن مراحل الملاحظة الفعلية أربعة مراحل

أ- تحضير شبكة الملاحظة

ب- تحضير عملية الملاحظة ← علاقة الباحث بالحدث الملاحظ

الإطلاع على المادة الموجودة حول

الحدث

¹- Ibid, P149.

ت- خلال الحدث

ث- بعد الحدث ← تسجيل الملاحظات

ملاحظات إضافية للتحقق ←

كتابة تقرير / وصف نهائي للحدث ←

أ- تحضير شبكة الملاحظة

يستخرج الباحث المؤشرات الخاصة بموضوعه، مثلما هو الشأن في المقابلة، ويقوم بملاحظتها في الميدان. أن هذه المؤشرات تحدد ما سنركز العمل عليه وتتبعه.

ب- تحضير عملية الملاحظة

علاقة الباحث بالحدث بالملاحظة :

نقصد بهذا العنوان الصفة التي سيحضر الباحث من خلالها الحدث الملاحظ، ذلك كونه غالبا لا يعرف الأفراد الذين يدرسه. إن حضور الباحث لواقعة الحدث الملاحظ متعلق بأمرين اثنين: أولهما هو الأهم نوع الحدث وطبيعته، وثانيهما موقف الباحث من الحدث وطريقة تصرفه تجاهه. إن الأمر هنا يتفرّع إلى احتمالات عديدة بحسب نوع الحدث.

الإحتمالات الأولى: حدث ملاحظ يمكن لأي إنسان حضوره مثل مقابلة كرة قدم، أو مظاهرة... فهذا حدث لا مشكلة عند الباحث لحضوره.

الإحتمال الثاني: حدث Réserve تحتاج إلى تفاوض للحصول على حق حضوره أو المشاركة فيه. إن هذا التفاوض يأخذ شكلين، الأول رسمي (مثل البحث عن دعوة مثلا) والثاني أخلاقي بمعنى أن يقدم الباحث نفسه داخل هذا الاحتمال حالتين اثنتين:

الإمكان الأول: هناك حضور كثير للحدث، لا يلفت حضورنا انتباه الآخرين في هذه الحالة نطلب المشاركة ونشرح سببها العلمي ثم نباشر عملية الملاحظة.

الإمكان الثاني: ثمة حضور قليل للحدث، ويلفت حضورنا انتباه الآخرين في هذه الحالة يجب "أن يتعرف عليك الآخرون باعتبارك حاضرا أو مشاهدا مقبولا. لأجل تحقيق ذلك يجب أن يقدم الباحث نفسه للفرد أو الأفراد الذين يخالهم مسؤولين عن تنظيم الحدث"(*)

يدخل ضمن هذا الجانب حديث المنهجية وتصنيفها للملاحظة إلى ملاحظة بالمشاركة أو بدون مشاركة أو كذلك تصنيفها إلى مكشوفة ومستترة والأمر هنا عموما متعلق بحديثات الوقائع للملاحظة وخيارات الباحث خلال التعامل معها.

الإطلاع على المادة الموجودة حول الحدث

تمكن هذه العملية في الإطلاع على الوثائق الخاصة بهذا الحدث أو بحدث مشابه له وذلك إن وجدت، وقد تكون هذه الوثائق أرشيفات أو صور وتسجيلات أو إي شيء آخر. تتم هذه العملية بشكل متواصل قبل وخلال وبعد ملاحظة الحدث، ذلك أنها غير مرهونة بوقت محدد.

ت- خلال الحدث:

إن ثمة أثناء الحدث مجموعة أمور يجدر القيام بها:

← البحث عن مكان يرى الباحث أنه يسمح بملاحظة جيّدة وتغيير المكان بين الحين والآخر للحصول على زوايا مختلفة في رؤية الوقائع

(*) لا يمكن تفصيل كل الاحتمالات بدقة، يبقى على الباحث أن يسلك في ذلك ما تقتضيه طبيعة السياق وحيثياته.

الملاحظة.

- ← تذكر (التسجيل الذهني) الفضاء الملاحظ وكيفية تواجد الفاعلين داخله
- ← تذكر السير الزمني للحدث
- ← تذكر الكلمات التي تتداول (وربما القيام ببعض المقابلات العفوية)
- ← تمييز الفاعلين والجماعات المهمة للبحث وتركيز الملاحظة عليها.

ث- بعد الحدث:

ث1 : تسجيل الملاحظات ويمكن تلخيص ذلك في كتابة الأمور التالية:

- ← الترتيب الزمني للأحداث
- ← رسم مخطط للمكان الملاحظ وكتابة تحركات الفاعلين داخله.
- ← ما قام الباحث بفعله خلال الحدث
- ← الأشياء التي أثارت إنتباه الباحث
- ← كتابة التحليلات الأولية لهذه الملاحظات

ث- 2 ملاحظات التحقق:

القيام، إن أمكن؛ بملاحظة أحداث مشابهة لتلك التي أنت بصدد دراستها والمقارنة بينها

ث- 3 كتابة تقرير حول الحدث:

يجدر في الأخير القيام بحذف المعطيات الغير مهمة للتحليل، والتركيز على النقاط الأساسية والمتعلقة مباشرة بالموضوع وكتابتها بشكل وصفي وتحليلي.

